

إشكالية المخطوطات التراثية المكتوبة بالحرف العربي: التراث السواحلي نموذجاً¹

الدكتور عبد الله عبد القادر محمد²

المستخلص

يعرض الموضوع التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي في شرق إفريقيا والذي مثل جزءاً من منظومة التمازج الثقافي والفكري بين العرب الذين هاجروا من الجزيرة العربية والأفارقة في سواحل شرق إفريقيا، الذين استقبلوا هؤلاء المهاجرين. نتج عن ذلك التلاحق والتزاوج في ما عرف بالثقافة السواحلية. كانت هذه الثقافة قد اتخذت الحرف العربي وسيلة للتعبير عن نفسها في مجالات الانتاج الثقافي والعربي لحفظ تراثه وتدوين تاريخه والتعبير عن مشاعره.

¹ مسودة الورقة هذه أقيمت في "ندوة شبه إقليمية حول التراث العلمي والأدبي المكتوب بالحرف العربي" في جيبوتي 25-26 يناير 2010م، نظمتها الإيسيسكو بالتعاون مع جامعة جيبوتي، جمهورية جيبوتي.

² محاضر في اللغة العربية بقسم اللغويات واللغات، كلية الآداب، جامعة نيروبي، كينيا.

كانت الكتابة بالحرف العربي في شرق إفريقيا قد بدأت في وقت مبكر من مجيء العرب إلى سواحله. وتشير بعض البحوث إلى وجود كتابات سواحلية بالحرف العربي ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي. واستمر هذا الوضع لبضع قرون حتى الغزو البرتغالي في القرن السادس عشر على سواحل شرق إفريقيا الذي دمر المدن السواحلية، كما دمر تقريباً قدرًا كبيراً من تراث المنطقة بشقيه السواحلي المكتوب بالحرف العربي والإسلامي العربي في المنطقة. ولم يستأنف الحرف العربي سيره إلا بعد هزيمة البرتغاليين. سيحاول البحث مناقشة ذلك التراث المكتوب بالحرف العربي وأنواعه وفترات إنتاجه. وهناك قضية أخرى سيتطرق إليها البحث وهي تعامل المستعمرين الألماني والبريطاني، اللذين ورثا البرتغاليين، مع ذلك التراث. وما قيمة ذلك التراث علمياً وفكرياً وتربوياً وأدبياً لشعوب ساحل شرق إفريقيا؟ وأخيراً مقترحات في سبل إحياء ذلك التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي ونتائج متوقعة.

Abstract

The paper deals with Sawahili heritage written in the Arabic script in East Africa, which is one of the elements of cultural and scientific integration between the Arabs, who had migrated from Arabia, and Africans on the east African coast, who welcomed those migrants. Such integration yielded the so-called Sawahili culture, in which the Arabic script was adopted as a means of self-expression in cultural and Arabic works for the preservation of culture, documentation of history and expression of feelings.

Writing in Arabic started at an early date in East Africa after the arrival of the Arabs there. Certain studies refer to the existence of Sawahili texts in Arabic dating to the 11th Century. The practice continued for centuries later on down to the Portuguese invasion of the east African coast and destruction of its towns as well the entire local cultural heritage, both Islamic and Sawahili written in Arabic. It was not until the defeat of the Portuguese that the Arabic script resumed its course.

The study will try to discuss the cultural heritage in Arabic, its nature, types and ages. It will also examine how the German and British colonialists, who inherited the Portuguese, behaved towards it, its value scientifically, mentally, educationally and literally. Finally, suggestions are made for the revival of the Arabic-written heritage and expected results.

دخول الإسلام والعرب إلى شرق إفريقيا

إن دخول الإسلام إلى شرق إفريقيا موضوع لم يفقد طراوته مع كثرة البحوث حوله. والمؤرخون الباحثون في تاريخ المنطقة يُجمعون على قدم الإسلام وأصالته في هذه المنطقة. ولكن الجدل يدور في كثير من الأحيان حول تحديد فترة معينة يمكن تسميتها بأنها الزمن الذي دخل فيه الإسلام إلى شرق إفريقيا. وهذا الجدل خاص ومحصور في البدايات الأولى لمجيء الإسلام إلى سواحل المنطقة. ويُعنى بشرق إفريقيا المنطقة الممتدة من سواحل الصومال إلى موزمبيق في جنوب القارة (الغارطة). لقد ترك الإسلام في هذه المنطقة ليس تأثيراً مادياً فحسب شمل الثقافة المحسوسة المتمثلة في الطابع العمراني المتميز للمدن الكثيرة العريقة التي كانت ممتدة على طول الساحل الشرقي، كما أحدث تأثيراً فكرياً وثقافياً تمثل في التزاوج الرائع بين الحضارة الإسلامية بمكوناتها اللغوية والدينية والبشرية وبين شرق إفريقيا بمكوناته البشرية واللغوية والثقافية. لقد وُلد هذا التزاوج "السواحلية"، اللغة، التي اتخذت الحرف العربي وسيلة لتسجيل تراثها وتخليده.

يذهب مؤرخو المنطقة³ إلى تحقيب تاريخ الإسلام في شرق إفريقيا في أربع

حقب تنتهي بمجيء الاستعمار إلى شرق إفريقيا، هي التالية:

الحقبة الأولى: من قدوم الإسلام إلى المنطقة إلى بداية نشوء المدن السواحلية.

الحقبة الثانية: ازدهار مدن الساحل وتعميرها إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

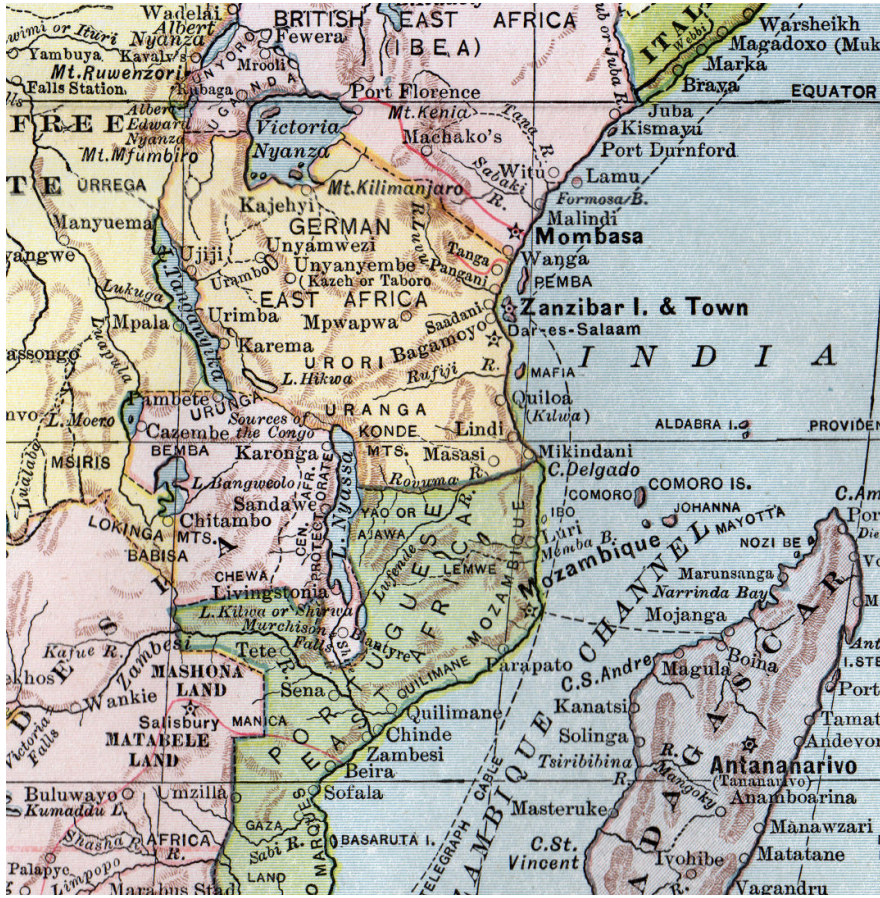
³ ترمنجهام 1964:1-30. Trimmingham

الحقبة الثالثة: الفترة البرتغالية التي امتدت لقرنين؛ أي حتى القرن السابع

عشر.

الحقبة الرابعة: الفترة العُمانية التي بدأت بهزيمة البرتغاليين حتى مجيء

الستعمر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.



الخارطة: جزء من خارطة إفريقيا في القرن التاسع عشر تبين منطقتي

الاستعمار الألماني والبرتغالي وجزءاً من البريطاني في شرق إفريقيا

(مدير التحرير من الإنترنت).

يمكن إضافة فترة خامسة تبدأ من مجيء الاستعمار إلى يومنا هذا. وهي تقريباً مائة وعشرون سنة. سيوجز هذا البحث الكلام عن الحقب الأربع السالفة الذكر، مع عرض لوضع الثقافة السواحلية وتراثها المكتوب بالحرف العربي.

الحقبة الأولى: من قدوم الإسلام

الحقبة الأولى هي التي يدور فيها جدل عن تحديد فترة دخول الإسلام إلى المنطقة. فهناك روايات تؤرخ لدخول الإسلام إلى المنطقة بهجرتي الحبشة الأولى والثانية وما أعقب ذلك من إسلام النجاشي ملك الحبشة. وتضيف الروايات إلى أن انتشار الإسلام بدأ بمنطقة بنادر في ساحل الصومال، ومنها انساب إلى سواحل شرق إفريقيا الأخرى.⁴ وتذهب رواية أخرى إلى أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أرسل بعض وفوده إلى سواحل شرق إفريقيا، حسب ما ذكره كتاب "الزنج". ويقول ماثيو (Mathew)⁵ إن معلومات كتاب "الزنج" تؤيدها أخبار أخرى وردت في "حولية لامو" تفيد بأن مدينة "لامو" أسسها رجال أرسلهم عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي. ويمكن جمع الروايتين بأنه كان هنالك وجود ما للمسلمين في سواحل شرق إفريقيا. فربما حفز هذا الخليفة عبد الملك في إرسال رجال إلى هذه المنطقة، وإلا فما جدوى إرسال وفد إلى منطقة شبه مجهولة. ويعدد كتاب "الزنج" قائمة من خمس وثلاثين مدينة في سواحل شرق إفريقيا تدين بالولاء للخليفة العباسي هارون الرشيد. وهذه الروايات المشيرة للتاريخ الموعل للإسلام في المنطقة تعضدها حفريات حديثة كشفت عن أبنية ومساجد في منطقة لامو ترجع إلى القرن الثامن الميلادي.⁶ كان سبب الحفريات الجديدة هو الكشف عن الدور الإفريقي أو معرفته في إقامة هذه المدن في هذه الفترة المبكرة؛ ما إذا كان هو من جهود العرب المهاجرين حصراً أم أن العنصر الإفريقي شارك في بناء هذه الحضارة في أيامها الأولى. وفي الإجابة عن

⁴ هورتون 1996:1.Horton.

⁵ 1963:102.

⁶ هورتون، الموضوع السابق نفسه.

هذا السؤال ينبغي إدراك الاختلاط والتزاوج الذي حدث بين المهاجرين المسلمين إلى سواحل شرق إفريقيا والسكان الأفارقة الأصليين، ومن ثم إنتاج هذا التلاقح ما عُرف فيما بعد باسم "الحضارة السواحلية" بجهود سواحلية، أي "أفروعربية".

الحقبة الثانية: ازدهار مدن الساحل وتعميرها

أما فترة ازدهار المدن وهي المعروفة بفترة "دولة المدينة"، التي كان فيها كل مدينة قائمة بذاتها، فقد اتسمت باستقرار عظيم. لم تحدث فيها حروب ما بين هذه المدن أو قل الدويلات. ويُرجع الباحثون هذا إلى أن مدن ساحل شرق إفريقيا، وإن كانت مجزأة سياسياً. فإن سكانها السواحليين المنحدرين من أعراق متنوعة وولاءات للمدن المختلفة، انمحت منهم الإثنيات، وانصهروا في ثقافة متجانسة، لغتها هي السواحلية، يستوي فيها الجميع. والعامل الآخر المهم والمؤثر هو أسلمة منطقة الساحل. هذان العاملان هما اللذان حفظا المدن الساحلية من تشكيل ولاءات إثنية تؤدي في كثير من الأحيان إلى التنازع والتناحر. هذه الفترة كانت هي العصر الذهبي للحضارة السواحلية من حيث الإنتاج المادي والثقافي.

الحقبة الثالثة: الفترة البرتغالية

أما فترة الوجود البرتغالي التي دامت لقرنين كاملين تقريباً فإنها لم تكن فترة طيبة للتراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي، لأنها كانت فترة تضرر فيها الوضع العام من كثرة الحروب وحرق المدن بما لم يكن يسمح بتنمية ثقافية أو إنتاج مخطوطات. وأما من حيث التبادل التجاري مع العالم الخارجي فقد كان يحدث فيه تقطع متكرر. ذلك لأن الحرب البرتغالية على المدن السواحلية كانت تشارك فيها سفن حربية، مما كان له أثر سلبي على سير الحركة التجارية في المحيط الهندي. وكذلك كان حال التبادل التجاري بين المدن السواحلية، الذي اكتفى بجلب بعض البضائع من الداخل وإيصال أخرى إليه، الذي لم يسلم هو الآخر من آثار تلك الحروب. ويمكن القول إنها كانت أسوأ فترة لمنطقة سواحل إفريقيا ثقافة وتجارة.

الحقبة الرابعة: الفترة العُمانية

يذكر ترمنجهام⁷ أن الحضارة السواحلية استفادت من مجموعات عربية، يسميهم مرتزقة، جاءوا لنصرة إخوانهم العرب أثناء الحرب البرتغالية على مدن الساحل، معطين دفعةً للعنصر العربي في المنطقة. ويضيف أن مجموعات من الحضارة الشافعية أعطت الثقافة السواحلية الحالية شكلها أكثر مما فعلت الإباضية التي جاءت من عُمان بعد هزيمة البرتغاليين. وهنا يشير إلى غلبة المذهب الشافعي على سواحل شرق إفريقيا، الذي كان للحضارة الفضل في نشره في شرق إفريقيا.

المخطوطات التراثية السواحلية المكتوبة بالحرف العربي

متى وكيف بدأت كتابة اللغة السواحلية بالحرف العربي؟

إن كتابة اللغة السواحلية بالحرف العربي قديمة. من نماذجها ما يرجع إلى القرن الثامن الهجري. لكن فترة بداية الكتابة بالحرف العربي سبقتها مرحلة نقل التراث الديني الإسلامي البحت وتداوله بصورة واسعة بين السواحليين. وفي حديث للباحث مع أحمد الشيخ النبھاني، الباحث الكيني الخبير بالمخطوطات والثقافة الشفهية السواحلية،⁸ أفاد بأن بعض حكام مدينة لامو، في الساحل الكيني، في القرن الثامن كان لهم كتبة يقيمون في غرف مجاورة للمساجد، مهمتهم نسخ الكتب الإسلامية من تفسير وحديث وفقه. تشبه هذه الظاهرة ما كان يحدث في بغداد والحوضر الإسلامية الأخرى حين كان الكتبة والوراقون والنساخون يمثلون ما تمثله اليوم دور النشر من إعداد نُسخ كثيرة للكتب التي يؤلفها العلماء المسلمون. وأضاف النبھاني أن هؤلاء الكتبة والنساخين كانوا متفرغين لهذا العمل. وهذا يدل على أن سواحل شرق

⁷ 1964:22.

⁸ 29 ديسمبر 2009، في ممباسا، كينيا.

إفريقيا كانت تستقبل مؤلفات من المشرق الإسلامي في شتى الفنون والمعارف الإسلامية. ومن العوامل التي كانت تسهل الحصول على تلك المؤلفات الزيارات التي كان يقوم بها الرحالة المسلمون إلى إفريقيا الشرقية، وكذلك رحلات طلبة العلم السواحليين إلى المدن الإسلامية، مثل المدينة المنورة ومكة المكرمة واليمن وعمان وأخيراً القاهرة، لنيل الإجازات العلمية والرجوع بعد ذلك إلى الساحل الإفريقي. ومن العوامل أيضاً التبادل التجاري الدائم والواسع بين ساحل شرق إفريقيا والعالم الخارجي، مما سهّل لسكان المنطقة متابعة المستجدات الفكرية في العالم العربي آنذاك.

يبدو أن الشعب السواحلي اعتمد على اللغة العربية للاستخدام الديني والتعامل التجاري والتأريخ والأغراض الأخرى التي كانت تمثل الحاجات الإنسانية في الأيام الأولى من الهجرة العربية إلى سواحل شرق إفريقيا. ثم بدأت كتابة اللغة السواحلية بالحرف العربي. لم تكن هذه البداية هجراً للغة العربية، بل كانت تطوراً أملتته ظروف استيعاب الثقافة السواحلية شرائح كثيرة من المجتمع. وفي هذا الصدد يشير زُخوف (Zhukov)⁹ إلى "وصول الإسلام ومعه الحرف العربي، حرف القرآن الكريم إلى سواحل شرق إفريقيا في القرن الثامن الميلادي، وأن السواحليين تبنا الحرف العربي لكتابة لغتهم. ومن هنا برزت اللغة السواحلية المكتوبة وتقاليدها إلى الوجود".

إن كتابة اللغة السواحلية بالحرف العربي صارت جزءاً من الثقافة السواحلية. وكان الفنان السواحلي في انسجام مع ذلك الحرف العربي لأنه كان يراه حرفاً قرآنياً قبل كل شيء. ولهذا تجاوب معه وتفنن فيه. والفنان السواحلي خلد تاريخه بالكلمة والزخرفة والخطوط العربية. ولم يخلده بالآثار الحسية كالتماثيل والصور اليدوية والمجسمات الخشبية. وهو بهذا يشبه ما في المجتمعات المسلمة الأخرى.

لئن لم يكن هنالك تاريخ محدد لبدء كتابة اللغة السواحلية بالحرف

⁹ 2004:1.

العربي فإن معظم المؤرخين يميلون إلى القول بأن القرن الثامن الميلادي ربما كان الفترة التي كتبت فيها اللغة السواحلية بالحرف العربي. إن أقدم ما وجد مكتوباً بالحرف العربي هي كتابات على القبور ونقوش على جدران المساجد. وترجح الروايات أن إسهامات العنصر الإفريقي في هذه المرحلة كان ضعيفاً وأن العرب والشيرازيين كانوا هم البارزين. لكن كثرة البيوت المشيدة من الكتل الصخرية التي دلت عليها الحفريات في القرن الثامن الميلادي تستبعد أن يكون سكان كل تلك البيوت من العرب المهاجرين، وبخاصة أن الدراسات التاريخية تشير إلى أن العرب المهاجرين كانوا يأتون بأعداد قليلة وفي فترات متقطعة، وأن اللغة السواحلية وثقافتها كانتا تستوعبانهم.

إن العصر الذهبي للحضارة السواحلية هو فترة استقرار المدن ووفرتها وازدهارها من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي. لقد شهدت هذه الفترة إنتاجاً أكثر للكتب والشعر والرسائل وازدهاراً للتعليم والفنون. توازي هذه المرحلة، المعروفة بالعصر الذهبي لساحل شرق إفريقيا، فترة العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في العهد العباسي. واستقبلت المنطقة زيارات من رحالة مشهورين مثل ابن بطوطة والمسعودي. وكانت هنالك حركة تنقل بين الساحل والعالم الإسلامي. لقد ساهمت هذه الأمور في تطور المنطقة ثقافياً ومادياً. وأصبحت المنطقة جزءاً من ذلك العالم الإسلامي المتقدم.

بالرغم من هذا التطور والاتصال الدائم بالعالم العربي، فإن الباحثين يشيرون إلى ندرة التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي لفترة ما قبل القرن الثامن عشر الميلادي، وأن التقدم الهائل لمدينة الساحل من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي لا يتناسب مع ندرة التراث الذي خلفته تلك الحضارة. ليست هذه الندرة خاصة بالتراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي فحسب، بل هي تشمل إنتاج علماء الساحل من التراث المكتوب باللغة العربية كالفقه والتفسير والأدب أيضاً.

إن هذا الوضع، أي قلة وجود تراث سواحي مكتوب بالحرف العربي، يفسره الباحثون في تاريخ المنطقة على اختلاف خلفياتهم واتجاهاتهم بأن الغزو البرتغالي لم يدمر المدن السواحلية فحسب، بل دمر معها تراثاً كثيراً يُعتقد أنه تراث عربي وآخر سواحي مكتوب بالحرف العربي. يدعم ذلك إقرار ترمنجهام بأن الانسجام التجاري والعلاقات بين المدن في نهاية القرن الخامس عشر عاقتها وصول البرتغاليين.¹⁰ كما تؤيده ملاحظة زُخوف عن ضياع التراث السواحي الذي أُلّف في العصور الوسطى، ويعني عصر ازدهار المدن، نتيجة الغزو البرتغالي، حيث يقول: "إن جميع هذا التراث دُمّر تقريباً أثناء الغزو البرتغالي على الساحل الشرقي الإفريقي في القرن السادس عشر"،¹¹ مضيفاً أن نماذج كثيرة من ذلك التراث الضائع بقي حياً كتراث شفهي، سُجّل على الورق بمرور الزمن.

إن البرتغاليين، وهم يدمرون المدن الساحلية، اتبعوا سياسة الأرض المحروقة، إذ أحرقوا مدن الساحل كلها بدءاً من سوفولا بموزمبيق وانتهاءً بمقديشو (الخارطة). ويقول المؤرخون إن هذا الدمار لم يستثن مدينة واحدة. بل اتصف بالهمجية التي لا تفرق بين كبير وصغير، وبين امرأة ورجل، وبين مسجد وبيت. كما يبدو أن المكتبات التي كانت تضم التراث تعرضت للتلف في تلك الفترة في الأيام الأولى من الغزو البرتغالي.

بالرغم من محاولة إنتاج العلماء والمثقفين السواحليين إعادة الأعمال الثقافية المدمرة أو بعضها كما يذهب إليه زُخوف، فإن الجهود التي بذلت لم تكن لتعيد أو لتنتج التراث السواحي المكتوب بالحرف العربي، وذلك لأن شروط إنتاج أعمال ثقافية وفكرية لم تكن متوفرة في ساحل منطقة شرق إفريقيا. وذلك للانهيال الذي أحدثه الغزو البرتغالي. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي ككل كانت في طريقها إلى الضعف من حيث الإنتاج الفكري، ومن حيث تفكك وحدتها.

¹⁰ 1964:18.

¹¹ 2004:2.

وبعد إخراج العمانيين للبرتغاليين بدأ الساحل الشرقي الإفريقي يسترد أنفاسه من جديد. شمل ذلك كتابة التراث من جديد إما تأليفاً جديداً وإما إحياءً لبعض التراث المدمر بما فيه المحفوظ شفهيًا. إن جُلُّ التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي المعروف يرجع إلى ما بعد خروج البرتغاليين، لفترة حكم العمانيين لشرق إفريقيا. لكن ثمة استثناءات هي أن بعض الأعمال الأدبية، وبخاصة الأشعار الطويلة وبعض كتب الأنساب، ترجع إلى قرون متقدمة، مثل القرن الحادي عشر الميلادي. فالشاعر السواحلي، المحارب الشجاع فومو ليونغو الباعري من جزر "باتي" مثلاً، تذكر الروايات السواحلية أن له قصيدة طويلة ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، يتحدث فيها عن بطولاته ودفاعه عن قومه بما هو أقرب إلى شعر الملاحم. وهناك كتاب آخر يسمى السيرة أو المقامة الكيلوية لمحمد بن سعد القلحاتي، يرجع إلى القرن السابع/الثامن الهجري (الثاني عشر/ الثالث عشر الميلادي). تقول الروايات عنه إنه كتاب في المذهب الإباضي. ويذكر فريمَن- جرينفيل (Freeman-Greenville)¹² أن كتاب تاريخ كيلوا كيسواني، المكتوب باللغة العربية، يرجع أصله إلى 1520 ميلادية. ولكن النسخة المترجمة عنه ترجع إلى 1867 ميلادية. لقد تعرض الكتاب لأكثر من اختصار، مما جعل نسخه تتفاوت في بعض أخبارها.

إذا تجاوز المرء بعض الأعمال القليلة، فإن جُل ما هو متوفر من التراث الآن راجع إلى فترة العمانيين. كان بعض أهم الأعمال في التراث السواحلي قد أُنجز في بدايات القرن الثامن عشر وفي منتصفه، مثل الهمزية والانكشاف. ألف الأولى السيد عيدروس، معارضةً لقصيدة البوصيري المصري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. ومع أن القصيدة تسمى همزية فإنها ليست همزية بل "ميمية". لكن القصيدة العربية التي استوحت منها الأفكار غلبت على اسمها. والأخرى ألفها السيد علي بن ناصر. وهي طويلة قائلها الشاعر عن سقوط مدينة "باتي" التي شهد الشاعر نهايتها. فالقصيدة موضوعها حول دمار "باتي"، كأنها

¹² 1962:34.

أقرب إلى رثاء المدن. ولكنها مع ذلك تتجاوز الرثاء إلى موضوع أوسع، هو الرحيل عن الدنيا، والمصير الذي ينتظر الذين لا يتبعون الطريق المستقيم، ولا يلجمون أنفسهم عن الهوى.

التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي:

خصائصه وحجمه وأماكن وجوده

خصائصه

تغلب ظاهرة النظم على التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي الموجود الآن. ويلقى المرء الشعر الديني في أحيان كثيرة. فالمدائح النبوية والوعظ والإرشاد والتوجيه والوصية، كلها وغيرها، اتخذت الشعر وسيلة لتبليغ الرسالة. وذلك تقريباً لأفهام العامة إلى الثقافة الإسلامية بكل مضامينها. واستخدم النظمُ الفقهَ والدراسات الإسلامية موضوعاتٍ أيضاً، كالسيرة النبوية والمغازي. كما تجاوز النظم العلوم الدينية والمدائح إلى ضبط العلوم الدنيوية المتعلقة بالبحار والرياح والنجوم وعلوم صناعة الأسماك والزراعة والعمارة والبناء. حدت غلبة الجانب الديني على هذا التراث ببعض المتخصصين في الثقافة السواحلية من المستشرقين لأن يقول إن المثقفين السواحليين لم ينتجوا إلا شعراً دينياً. لكن شريف (Shariff) ¹³ يرد هذه التهمة بقوله إن هذا الأدب غير الديني لم يجد عناية، ولم تتداوله الألسن كثيراً. ومن أجل هذا لم يخلد هذا الشعر بالتسجيل والكتابة لاعتقادهم بأنه شعر دنيوي لا ثواب ولا أجر في حفظه وروايته ومن ثم تخليده.

حجمه وأماكن وجوده

إن من الصعوبة بمكان تحديد حجم هذا التراث، وإن كانت هناك آلاف العناوين لوثائق وكتب ورسائل باللغة السواحلية المكتوبة بالحرف العربي. ذلك

¹³. 1991:42.

لأن هذا التراث كان ثمرة قرون عديدة، ممتدة من القرن الحادي عشر إلى منتصف القرن العشرين. تقارب فترة الإنتاج الألف سنة، وإن تخللتها بعض أزمات انقطاع. يشمل منطقة شاسعة، تمتد من سواحل الصومال إلى سافالا بموزمبيق (الخارطة). وهو ساحل يصل طوله ما يزيد على ثلاثة آلاف كيلومتر. أغلب هذا التراث محفوظ في أوروبا الآن، في مكتبات بريطانيا وألمانيا ومتاحفهما خاصة. ففي بريطانيا تحتضن مكتبة "معهد الدراسات الشرقية والإفريقية (School of Oriental and African Studies)"، بجامعة لندن، ومكتبة المتحف البريطاني كمّاً كبيراً من ذلك التراث. وفي مكتبات جامعات ألمانيا مثل فرانكفورت وهامبورغ وكولون وغيرها آلاف من المخطوطات. وهناك جزء كبير من تلك المخطوطات في مكتبة جامعة دار السلام بتنزانيا، يقدر بستة آلاف مخطوطة. وفي متحف زنجبار¹⁴ ثمانمائة مخطوط سواحلي مكتوب بالحرف العربي. كما أن هنالك جزءاً مهماً من المخطوطات على امتداد الساحل، بأيدي أفراد من أسر تبخل بذلك التراث ولا تريه للغرباء. فلا يُعرف حجمه الحقيقي. قد تصل المخطوطات في عمومها عشرين ألفاً بدءاً بالصفحة أو الصفحتين وانتهاءً بالكتب.

قد يكون شيئاً قليل من ذلك التراث في أيدي أفراد من عامة الناس لا يدركون قيمته ولا يفهمون محتواه. وفي حديث مع عبدالله خطيب،¹⁵ المتخصص في الدراسات الإسلامية من منطقة الساحل الكيني في مدينة ممباسا في الساحل الكيني، أفاد بأن رجلاً أوروبياً جاء إلى ممباسا في ثمانينيات القرن العشرين ووعده الناس بأن من يأت بمخطوطات سواحلية مكتوبة بالحرف العربي فإنه يشتريها منه ويعطه بدلها مبلغاً من المال. فبدأ بعض الناس يأتون

¹⁴ مدير التحرير: الاسم للجزيرة المقابلة للساحل الإفريقي المسمى تنجانيقا سابقاً (الخارطة). صارا بلداً واحداً باسم تنزانيا منذ الستينيات. لكن المؤلف يستخدم الاسم القديمين كثيراً في ما بعد.

¹⁵ ديسمبر 2009، ممباسا، كينيا.

بمخطوطة أو مخطوطتين وهو جالس لهم في عراء مفتوح يستلم منهم ما يأتون به.

القيم التربوية والفكرية والتاريخية للتراث السواحلي

إن القيمة التربوية لهذا التراث، وكما يقول زُخوف،¹⁶ تكمن في تعليم الأجيال الناشئة الأخلاق المرغوب فيها للسلوك الاجتماعي. فهناك تراث يتناول العقيدة وتطبيق الإسلام وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله. ويشير زُخوف بأن الذين لا يقرأون كانت تُقص عليهم مضامين هذا التراث. وفي الأدب السواحلي نماذج من القرآن وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحكايات عن أدبيات الغازي في العصور الوسطى. استُخدم هذا التراث لحفظ الكيان والدفاع عن الإيمان. واستُخدم جزء من هذا التراث أثناء الدفاع عن المدن السواحلية من الغزو البرتغالي.

أما القيمة التاريخية فتكمن في أن التراث يحمل معلومات تاريخية مهمة عن المنطقة وتاريخها الفكري والثقافي. فهناك حوليات كثيرة مثل "حولية كيلوا" و"حولية لامو" و"حولية باتي" وغيرها. بهذه الحوليات معلومات غنية عن تلك المدن، وإشارات عن نظم الحكم والحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها. وكتاب تاريخ أسرة المزارعة في سواحل شرق إفريقيا، مثلاً، الذي ألفه الشيخ الأمين المزروعى بالسواحلية المكتوبة بالحرف العربي قبيل منتصف القرن العشرين، كان بعض الباحثين يظنون أنه مفقوداً. لكنه الآن محفوظ من بين الكتب التي في المكتبات البريطانية. يقدم الكتاب تاريخاً جيداً لحكم المزارعة في ممباسا في القرن الثامن عشر الميلادي.

لكن سير الثقافة السواحلية في شرق إفريقيا دخل منعطفاً جديداً بوصول البعثات التنصيرية قبيل منتصف القرن التاسع عشر وبوصول الاستعمار في الربع الأخير من القرن نفسه، وأثناء التسابق الاستعماري الأوروبي على إفريقيا،

¹⁶ 2004:4-5.

د. عبدالله عبدالقادر محمد إشكالية المخطوطات التراثية... بالحرف العربي: ... السواحلي

أو بما عرف بتقسيم برلين لإفريقيا. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو عن قصة الحرف العربي مع التنصير والاستعمار.

السواحلية والحرف العربي بين التنصير والاستعمار

اللغة

لما جاء التنصير أولاً ثم الاستعمار ثانياً إلى شرق إفريقيا، وجدا السواحلية قد اتخذت الحرف العربي وسيلة للتدوين والتسجيل والتواصل. كما وجدا في ذخيرتها اللغوية اقتراضاً كثيراً من المفردات العربية ما دل على مفاهيم فكرية وثقافية، ولم يك مجرد اقتراض لبعض مفردات من هنا وهناك. فأدرك التنصير والاستعمار أن الإسلام يمثل جزءاً كبيراً من مضامين اللغة السواحلية.

انتشارها

كان ما تقدم عن اللغة نفسها. وأما من حيث انتشارها، فإنها كانت في توسع مستمر إلى وسط إفريقيا وجنوبها. وإذا كانت فترة ازدهار المدن تعد العصر الذهبي للحضارة السواحلية، فإن فترة الحكم العماني في شرق إفريقيا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تعد العصر الذهبي للغة السواحلية. فاللغة السواحلية التي كانت شبه محصورة على سواحل شرق إفريقيا بدأت تزحف إلى المناطق الداخلية. فوصلت إلى أوغندا ورواندا والكونغو. ومعها كان يزحف الإسلام.¹⁷ كان سبب هذا الانتشار هو سياسة السيد سعيد بن سلطان، الذي كان قد عزم على أن يمد حكمه وسلطانه إلى المناطق الداخلية. وذلك ما أدى إلى إيجاد مراكز تجارية في المناطق الداخلية.¹⁸ كانت اللغة السواحلية هي اللغة الوحيدة المرشحة لاستيعاب ذلك

¹⁷ هاينه 1970:84. Heine.

¹⁸ ترمنجهام 1964:22.

التبادل التجاري الكوزموبولتي¹⁹ لتلك الأسواق في المناطق الداخلية. ويمكن اعتبار السواحليين عصب تلك الأسواق. لذا فإن السواحلية، التي كانت لغة إسلامية ساهم العرب واللغة العربية في إثرائها وتنميتها واتخذت الحرف العربي لتعبر عن رسمها، فرضت نفسها على مجموعات غير مسلمة. فغير المسلمين، من أوروبيين وهنود كانوا قد جاءوا للتجارة، اضطروا لأن يتحدثوا باللغة السواحلية في تعاملهم التجاري وفي التواصل اليومي. وكلما تأسس مركز تجاري كلما كانت السواحلية هي ملجأه كلغة تفاهم. وبذلك لم تعد السواحلية خاصة بالمسلمين وحدهم في هذه الفترة. ثم بدأت تزحف متوجهة إلى جنوب القارة. ولولا تدخل المستعمر لكانت السواحلية لغة تخاطب في دول جنوب إفريقيا.

التنصير والاستعمار

أولاً جاء التنصير مستخدماً الأساليب السلمية في دعوته. ولكن قبل دخول أول منصر إلى المنطقة أو في زمنه، بدأت أمريكا والدول الأوروبية العظمى في البعث بممثلين لها في شرق إفريقيا. فأسست أمريكا قنصلية لها في زنجبار في عام 1837 لترعى مصالحها التجارية ورعاياها هناك. وكذلك فعلت بريطانيا في عام 1841 وفرنسا في عام 1844.

يُعد الألماني لودفيج كراف أول منصر دخل إلى سواحل شرق إفريقيا في عام 1845 بإذن من الحاكم العماني. كانت مهمته الأولى، الظاهرة، فهم السواحلية واستيعابها قبل بدء دعوته. يقول أمدو (Amidu)²⁰ إن كراف أنجز أول كتاب في القواعد السواحلية في عام 1845 وأن خمس سنوات أخرى أخذته لنشر الكتاب أخيراً في أوروبا. إن كراف لم يتوقف عند هذا العمل، بل ألف معجماً سواحلياً ألمانياً لمساعدة الألمان في تعلم اللغة السواحلية. ومع أنه كان يؤسس

¹⁹ مدير التحرير: cosmopolitan. من كوزموبولس (cosmopolis) اليونانية، بمعنى مدينة

كبيرة عالمية السكان.

²⁰ 1995.

لعمل لغوي سواحلي غير قائم على الحرف العربي في هذه الفترة المبكرة، إلا أن التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي لم يخرج من دائرة اهتمامه. يذكر زُخوف^{1 2} أن كراف كان مطلعاً على التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي المؤلف في منتصف القرن التاسع عشر. ويضيف زُخوف أن كراف أرسل مخطوطتين شعريتين طويلتين مكتوبتين بالحرف العربي إلى مكتبة ألمانية في عام 1854؛ أي بعد أقل من عشر سنوات من وصوله إلى سواحل شرق إفريقيا. ومن منتصف القرن التاسع عشر وإلى قبيل مجيء الألمان إلى تنجانيقا أنجزت البعثات التنصيرية كتباً وأعمالاً كثيرة في قواعد اللغة السواحلية. كلها بالحرف اللاتيني.

الجدير بالذكر هنا أن الإرساليات التنصيرية في سنواتها الأولى استخدمت اللغة السواحلية المكتوبة بالحرف العربي لدعوتها بين الناس. وترجم الكتاب المقدس إليها. يروي وليمسون^{2 2} (Williamson) أن العهد القديم والعهد الجديد تُرجمتا إلى السواحلية المكتوبة بالحرف العربي بلهجة ممباسا، وأن إنجيلي يوحنا ولوقا كتبهما شخص واحد. ويقول إن هذه الترجمات أُعدت من أجل أن تعمل البعثة النصرانية في ممباسا داخل المسلمين. فهذه الأنجيل وبعض الترانيم الأخرى كانت مكتوبة باليد. وكان هناك وضع مشابه في زنجبار إذ أن إنجيلي متى ويوحنا طُبعا في زنجبار بالسواحلية المكتوبة بالحرف العربي. ويشير وليمسون إلى بعض الاختلافات في كتابة هذين الإنجيلين المطبوعين في زنجبار.

ومع ترجمة الأنجيل إلى السواحلية المكتوبة بالحرف العربي فإن الإرساليات التنصيرية كانت تعمل على أن تستغني عن الحرف العربي في المستقبل. ويتعجب شريف^{2 3} من أن الترجمة الأولى لمعاني القرآن الكريم إلى

²¹ 2004.

²² 1947.

²³ 1991:40.

السواحلية قامت بها جمعية تطوير المعرفة النصرانية في عام 1923. وهو أمر لم يكن المسلمون السواحليون في حاجة إليه. ولكن القصد من ذلك العمل هو توفير معاني القرآن لقسسهم ليجادلوا بها العلماء المسلمين بحثاً عن الشبهات حتى يشغلوا المسلمين عن الدعوة الإسلامية. وبالإضافة إلى ما ذكره شريف من إشغال المسلمين ومجادلتهم فإنه يبدو للباحث أن الرسائل التبشيرية كانت تريد ان تقنع المسلمين المتشبهين بالحرف العربي بأنه يمكن كتابة كتابهم المقدس باللاتينية.

ثمة أمر آخر مهم في هذا الصدد هو أن أفراد هذه الرسائل اعتمدوا اعتماداً كلياً على المثقفين السواحليين في هذا التراث. بل إن بعضهم تعلم من المحليين كيف تكتب السواحلية بالحرف العربي. وأكثر من هذا تعلموا الشعر السواحلي الغني باللغة والبلاغة.

إن سبب استخدام الكنيسة السواحلية المكتوبة بالحرف العربي كان مرحلياً، إذ كانت مجبرة على هذا الأمر الذي لم يكن منه بد. فالسواحلية المكتوبة بالحرف اللاتيني لم تتطور بعد، واللغات الاستعمارية كالفرنسية والإنجليزية والألمانية لم تصل إلى المنطقة بعد أيضاً.

وفيما يتعلق بالتعامل مع التراث فإن المستعمر بدأ بمحاولة فهم هذا التراث وبالاستعانة بالمثقفين المحليين. ولكن ليس كما كان يفعله أفراد التنصير في تعلم السواحلية في أماكن دعوتهم، بل باستضافة بعض العلماء السواحليين المقيمين في بلاد الغرب نفسها. يقتطف جان (Jahn)²⁴ شيئاً يسيراً من سيرة ذاتية لرجل من زنجبار اسمه عمور بن ناصر (1868 - ؟) كان قد سجل مشاهداته من بداية رحلته بباخرة من زنجبار حتى وصوله إلى ألمانيا. فيذكر مثلاً أنه حينما وصل إلى اليمن رأى الصوماليين في ميناء عدن وهم يحرسون الجمارك، وكيف أن عدن تشبه بنغاني (مدينة من مدن ساحل شرق إفريقيا). وذكر أيضاً قناة السويس وكيف أنه حينما نزل إلى المدينة رأى

²⁴ 1966:81-82.

القطار البخاري. إن المهم في هذه السيرة الذاتية هو أن الرجل أُستضيف في ألمانيا لتدريس السواحلية، وأنه جمع الشعر السواحلي المكتوب بالحرف العربي، الذي تناول حروب شرق إفريقيا منذ استيلاء الألمان عليها من عام 1880 إلى 1900. إن الغريب في الأمر هو أن الألمان، وبعد مرور مائة سنة من ذلك الوقت، وهي ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين الماضي، استضافوا أحمد الشيخ النبھاني من ساحل كينيا. وهو عالم وخبير بالثقافة السواحلية المكتوبة بالحرف العربي ليساعدهم في قراءة تراث سواحلي مكتوب بالحرف العربي يعود إلى القرون الماضية ليحولوه إلى الحرف اللاتيني. إذن فالحاجة الأوروبية إلى مثقف سواحلي يجيد قراءة السواحلية المكتوبة بالحرف العربي لم تزل قائمة آنذاك. والمثقف السواحلي مطلوب لهذه المهمة مهما طال الزمن.

وما أشير إليه هنا عن أهمية معرفة الحرف العربي للباحث في الأدب السواحلي هو نفسه ما صرح به أَلَن (Allen)،²⁵ الذي كان قد ترجم إلى الإنجليزية ست قصائد طويلة من الشعر السواحلي المكتوب بالحرف العربي وكتبها بالحرف اللاتيني. ساعده في ترجمته سواحليون كثيرون. يتراوح طول الواحدة من هذه القصائد ما بين مائة وخمسمائة بيت. وصرح أَلَن بأن أي متعلم للأدب السواحلي في لغته الأصلية يكون خاسراً إذا كان لا يعرف الحرف العربي ليُفيد منه. ويضيف أنه لمن المستحيل تحرير نص أصله مكتوب بالحرف العربي، قاصداً الأدب السواحلي، إلا إذا كان المحرر على علم كاف بالخطوط العربية، لا لقراءة مخطوط سواحلي مكتوب باليد فحسب، بل لتقويمه وتصوُّر كيف كتب أصل المخطوط. وذلك من أجل عصرنته وتبسيطه، ولتصحيح الأخطاء الحقيقية. ويتأسف لأن بعض المحررين حرروا أعمالاً أدبية بالسواحلية المكتوبة بالحرف العربي دون أن يرجعوا إلى أصول تلك الأعمال بأنفسهم. إن هذا الاعتراف خطير يلزم الباحثين في هذا المجال بمراجعة الأعمال التي عملت

25. 1968:9.

واكتشاف ما قد يكون حدث فيها من أخطاء ومدى أثرها على الثقافة السواحلية.

في بدايات القرن العشرين ثبت الاستعمار والتنصير مواقعهما في شرق إفريقيا. وأشار البحث إلى أن كليهما استخدمتا اللغة السواحلية المكتوبة بالحرف العربي لأداء مهامهما؛ التنصير لدعوته والاستعمار لإدارة شؤون البلاد وتسييرها. ولكن جهود التنصير في استخدام الحرف اللاتيني في كتابة السواحلية بدأت مبكرة. يذكر هاينه²⁶ أن السواحلية التي كانت تُكتب بالحرف العربي تحولت تدريجياً إلى الحرف اللاتيني مع نهاية القرن التاسع عشر. وذلك لأن جهود التنصير في العمل على تطوير أبجدية لاتينية للسواحلية بدأت تؤتي أكلها في بدايات القرن العشرين.

شهد مطلع القرن العشرين عدة تطورات من بينها إنشاء مدارس عصرية تدرس اللغة الإنجليزية والسواحلية بالحرف اللاتيني، ومحاربة الاستعمار المباشرة وغير المباشرة للحرف العربي بمنع استخدامه في دوائر حكومات الاستعمار، ووجود علماء غربيين باحثين في الثقافة السواحلية في جوانب كثيرة وأهمها اللغة والتاريخ. اتضح كل ذلك في أربعة أمور هي التالية:

الأمر الأول

كان الأمر الأول هو تكثيف مدارس عصرية تستخدم السواحلية المكتوبة بالحرف اللاتيني. بدأها التنصير ودعمتها إدارة الاستعمار. ويبدو أن الاستعمار لم يتخذ في أيامه الأولى مدارس، وأن جل المدارس العصرية كانت بيد البعثات التنصيرية. وكان بعض رجال الكنيسة يرون استخدام اللغات المحلية بما فيها السواحلية المكتوبة بالحرف اللاتيني. وينتقد أونيانغو (Onyango)²⁷ ضمناً صنيع الكنيسة بقوله: "إن لعمل بعثات التنصير في كينيا وجهين. فلا يمكن إنكار الآثار العظيمة للبعثات التنصيرية، مثل كراف وهبرمان على اللغة

²⁶ 1970:90.

²⁷ 2005:1.

د. عبدالله عبدالقادر محمد إشكالية المخطوطات التراثية... بالحرف العربي: ... السواحلي

السواحلية. وفي الوقت نفسه فإن خلفاء هؤلاء أعطوا اهتماماً بلغات محلية عديدة على حساب السواحلية". وإذا كان كثير من الباحثين يعتقدون أن سياسة الكنيسة بتدريس اللغات المحلية والاهتمام بها من باب المحافظة على الثقافات المحلية، أفلا يمكن استنتاج أن الكنيسة كانت تحاول تقليص دور اللغة السواحلية وخلق كيانات ثقافية متعددة، وبهذا تحد من سيادة هذه اللغة؟ لقد لاحظ أونيانغو أن تطوير اللغات المحلية المتعددة كان على حساب السواحلية. لكن إدارة الاستعمار البريطانية كانت تحبذ استخدام الإنجليزية. فرضتها على الجميع لغةً للتعليم والإدارة. ويتبادر إلى الذهن لماذا كان الإصرار على تقديم الإنجليزية على السواحلية، التي فرغت كثيراً من مضامينها بعد كتابتها بالحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي، وكانت موجودة واستخدمتها الكنيسة، وصارت لغة تعليم وإدارة لها. الجواب هو أن السواحلية بالرغم من ذلك لم يقبل بها المستعمر كلغة خشية أن تتبوأ مكانة في المستقبل. وفي هذا يقول أونيانغو: ²⁸ "وفي طيلة فترة الاستعمار، ومع أن السواحلية صارت لغة مقننة واستخدمت في الإدارة، وفي المراحل الدنيا من التعليم حتى عام 1953، فإنه من المهم ملاحظة أن الأهداف بعيدة المدى لحكومة الاستعمار كانت تطوير سواحلية في مرتبة أدنى بالمقارنة مع الإنجليزية".

الأمر الثاني

كان الأمر الثاني هو إعداد الاستعمار كوادرتتحدث الإنجليزية تخدمه وتساعد في إدارة البلاد، في وظائف المترجمين والسكرتيرين وغيرها من الوظائف غير التنفيذية وغير القيادية. وهذه الكوادر هي التي مثلت النخب الثقافية والحاكمة بعد رحيل الاستعمار. وبهذا أعد المستعمر ورثته. ولهذا كانت اللغة الإنجليزية ولغات القوى المستعمرة هي المرشحة لتحل محل السواحلية كلغات ثقافية وفكرية وعلمية.

²⁸ المرجع السابق نفسه: 2.

وعن رفض المسلمين للغة الإنجليزية، يرى علي المزروعى (Mazrui)، في بحث له مفصل عن الإسلام واللغة الإنجليزية في شرق إفريقيا وغربها،²⁹ أن اقتران اللغة الإنجليزية بالتنصير، الذي استخدمها في مدارسها وفي دعوتها، واستخدام إدارة الاستعمار لها في التعليم أمر لم تكن لتخطوه عيون المسلمين. لقد أقلق هذا الوضع المسلمين، من حيث إن هذه الإنجليزية التي اعتقدوا أنها لغة الكفار بدأت تسود في إفريقيا البريطانية. ويضيف علي المزروعى إلى هذا أن المسلمين قارنوا قدوم القرآن الكريم إلى قارة إفريقيا ومعه اللغة العربية والمكانة العالية التي تتبوها هذه اللغة في الإسلام بالمكانة العالية التي تحتلها اللغة الإنجليزية في النصرانية التي قدمت إلى القارة.

لقد استنتج المسلمون من هذه الأوضاع أن الأديان تحتاج إلى لغات تتناسق معها تحمل مفاهيمها، وتكون أوعية لأفكارها. وبما أن العربية والسواحلية لغتان إسلاميتان تمثلان الإسلام، فإن الإنجليزية لغة تمثل النصرانية. ومن هنا يمكن فهم أسباب مقاطعة المسلمين لذلك التعليم العصري ذي اللغة الإنجليزية لفترة طويلة. ومن هنا يمكن أيضاً فهم أسباب محاربة التنصير والاستعمار أو إهماله اللغة العربية واللغة السواحلية المكتوبة بالحرف العربي والمدارس الإسلامية التي كانت تسود قبل مجيء الاستعمار. فصار هنالك صراع فكري وسائله اللغات والتعليم، وغاياته الأديان؛ أو صراع حول الهوية.

الأمر الثالث

الأمر الثالث هو محاربة الكنيسة والحكومة الألمانية للسواحلية المكتوبة بالحرف العربي وذلك بمنع استخدامها إبان استعمار ألمانيا للمنطقة. ويشير هاينه³⁰ إلى أن من البعثات التنصيرية من لاحظت العلاقة الوثيقة بين اللغة السواحلية والإسلام، وأن انتشار السواحلية عامل مساعد في انتشار الإسلام. ومن أجل ذلك ينبغي إيقاف انتشار السواحلية. ويضيف هاينه أنه كان هناك

²⁹ 1971:192-193

³⁰ 1970:91.

آخريات من البعثات التنصيرية ترى ألا تُترك السواحلية للمسلمين، بل تُنتزع منهم وتُستخدَم في التنصير. وهذا ما كان من شأن بعثات التنصير في شرق الكونغو. ويدعم هاينه³¹ كلامه هذا بأن خبير البعثات جوليوس رتشر قال في مؤتمر المستعمرات الألمانية في عام 1905 "إن الإسلام منتصر في كل مكان تنتشر اللغات التي تشكل وسيلته، وأن أي إيقاف لها يجب أن يبدأ بمنع استخدام السواحلية المكتوبة بالحرف العربي كلغة حكومية". ويضيف هاينه أن مسؤولي إدارة الاستعمار، وبخاصة الذين رجعوا إلى ألمانيا من خدمة الاستعمار، نصحوا بعدم استخدام السواحلية كذلك. وفي عام 1907 أصدرت الإدارة الألمانية قانوناً يلغي أي وثيقة أو خطاب بالسواحلية المكتوبة بالحرف العربي ويجعلها غير سارية المفعول.³² وبعد ذلك بعامين فتشت الإدارة الألمانية بيوت العلماء المسلمين في تنجانيقا. وفي هذا يروي قسطنطين (Constantin)³³ "أنه في عام 1909 خافت الإدارة الألمانية من المشاكل، فقامت بتفتيش منظم لبيوت بعض كبار العلماء في تنجانيقا، فوجدت مختارات رائعة من كتب من جميع أنحاء العالم الإسلامي. وكانت هذه الكتب تغطي جميع مجالات العلوم في العالم الإسلامي". ويعقب قسطنطين بقوله "ولهذا فإن المشائخ لم يكونوا جهلاء خلافاً لما كان يُعتقد في أوروبا وفي زنجبار".³⁴ ولكن قسطنطين لم يخبر ما إذا كانت السلطات الألمانية قد صادرت هذه الكتب أم أنها أرجعتها إلى أصحابها. إن جهود الألمان في محاربة السواحلية كانت في معقلي السواحلية. وهما تنجانيقا وزنجبار. ولكن هزيمة الألمان في الحرب العالمية الأولى أوقفت أنشطتهم الاستعمارية في شرق إفريقيا.

³¹ المرجع السابق نفسه: 92.

³² المرجع السابق نفسه: 90.

³³ 1988:74-75.

³⁴ الموضوع السابق نفسه.

الأمر الرابع

الأمر الرابع هو أن الإدارات الاستعمارية الألمانية والبريطانية والبلجيكية كان يرافقها علماء آثار ولغويون ومؤرخون. منهم من كانت له دراية باللغة العربية وبخاصة أصواتها وطرق كتابتها. فحين كان الاستعمار يقنن لتطويع الإنسان لحكمه، وحين كانت الكنيسة تتولى التعليم وتجبر الناشئة على النصرانية في مدارسها، كان هؤلاء العلماء يجمعون المخطوطات السواحلية ويقرونها ويفكون رموزها. ثم نقلوها إلى المكتبات الأوروبية وأعادوا قراءتها. وأهم من هذا كله كانت كتابتها بالحرف اللاتيني وترجمتها إلى الألمانية والإنجليزية والفرنسية. كان الغرض من هذا هو قراءة عقل الإنسان السواحلي وفهم أنماط عيشه.

يمكن تقسيم هؤلاء العلماء الغربيين إلى جيلين؛ جيل قديم إما مع البعثات التنصيرية أو مع إدارات الاستعمار، وجيل له صبغة أكاديمية مرتبط بجامعات ومؤسسات تدعم البحث العلمي يهتم بجمع التراث في أربعينيات وخمسينيات وستينيات القرن العشرين. عمل بعض هؤلاء الأكاديميين في البعثات التنصيرية في فترات طويلة وأجادوا اللغات والثقافات المحلية. واتخذوا صفة أكاديمية مستفيدين من خبرات وجودهم في ساحل شرق إفريقيا وإجادتهم للغة السواحلية. منهم ج. ألن (J. Allen) و و. إي. تايلور (W.E. Taylor).

لقد ساهمت هذه الأمور الأربعة مجتمعة بصورة كبيرة في إضعاف الحرف العربي، ومن ثم إضعاف الاتصال بالتراث السواحلي. وأخيراً جاء إلغاء دور ذلك التراث الغني بالثقافة الإسلامية أو إهماله، وبخاصة لدى الأجيال المحلية الجديدة التي نشأت تحت سيطرة الاستعمار وتعليمه.

وفي سبيل سعي الاستعمار لتغيير الحرف العربي للغات مناطق مسلمة أو

مناطق ذات أغلبية مسلمة، ينقل وليمسون،³⁵ عن غُرفنز (Griffins) في كتابه قصة الحروف والأرقام، كيف "أن الحرف العربي الآن هو الذي يلي اللاتينية من حيث انتشاره على وجه الأرض، وأن ذلك الحرف يستخدم في غامبيا والمغرب والجزائر وتونس ومصر والسودان وفي الهوسا وفي البلاد السواحلية وفي الجزيرة العربية وفلسطين وسورية والعراق وفارس وأفغانستان والهند والملايو وأن هناك لغات تفيد حروفها الحروف العربية مثل الهند وغوجراتي وملايالام وتاميل وجاوة." يُفهم من هذا كيف أن الحرف العربي مثَّل حضارة، وأن لغات كثيرة اعتمدت عليه، وأن السواحلية التي بدأت كتابتها بالحرف اللاتيني من أربعين سنة تقريباً لم تزل تكتب بالحرف العربي.

ومع انتشار التعليم الغربي وتوسع أنشطة الاستعمار، شعر بعض العلماء الساحليون بالخطر الداهم من الحرف اللاتيني. بدأ ذلك بصيحات تنذر من هذا القادم، وتحث على التمسك بالحرف العربي والاحتفاظ به. ذلك لأن استخدام الحرف اللاتيني سيؤدي إلى انقطاع الناس عن تراثهم وماضيهم. ومن أهم تلك الصيحات صيحات الشيخ الأمين المزروعى في ثلاثينيات القرن العشرين. وكان الشيخ الأمين المزروعى على علاقة بالعالم الإسلامي ومتابعاً لأحداثه وتطوراتها. تصله التغييرات التي كان يحدثها الاستعمار في مناطق كان الإسلام فيها أقوى، والمسلمون فيها أكثر. لكن التيار واتجاهات الأمور لم تكن لصالح المدافعين عن الحرف العربي. ويشير وليمسون³⁶ إلى أن الشيخ الأمين المزروعى، مع كونه من أقوى المدافعين عن الحرف العربي، أصدر بعض الكتب الإسلامية بالحرف اللاتيني. ويبدو أن الشيخ لما أيقن أن الحرف اللاتيني قادم لا محالة، رأى استخدامه لنشر الإسلام.

بعد أن انتشرت اللغة السواحلية المكتوبة بالحرف اللاتيني في منطقة شرق

³⁵ 1947.

³⁶ 1947.

إفريقيا، وصارت لغة للتعليم، شعرت الإدارة الاستعمارية الحاجة إلى لغة سواحلية موحدة معيارية تستخدم في طباعة الكتب المدرسية والقواميس. ويذكر هاينه³⁷ أن حاكم تنجانيقا دعا إلى مؤتمر في دار السلام، عاصمة تنجانيقا، في عام 1925 لبحث هذه المسألة. وعقد مؤتمر آخر في ممباسا في الساحل الكيني في عام 1928 وشارك فيه عالم لغوي ألماني كمستشار لغوي. وكان كل الحاضرين الممثلين للدول المستعمرة متفقين على التعاون الوثيق فيما بينهم فيما يتعلق بإيجاد قواميس جديدة وكتب للقواعد والنحو وكتب مدرسية. فأُسست "اللجنة السواحلية" التي تتابعت اجتماعاتها في هذا الموضوع حتى انتهت إلى اعتماد لهجة زنجبار لهجة معيارية. ودار جدل حول استعارة اللغة السواحلية المصطلحات الجديدة من اللغات الأجنبية لحاجة السواحلية إلى استيعاب مصطلحات جديدة. فكان هناك رفض من بعض الحضور لاستعارة السواحلية من اللغات الأجنبية وبخاصة العربية. وعن انفراد المثقفين الأوروبيين باللغة السواحلية وآدابها ينقل شريف³⁸ عن رُلينز (Rollins) قوله إن ما بين 1900- 1950 نُشر ما يقرب من 395 عملاً نثرًا في اللغة السواحلية، وأن 346 من تلك الأعمال ألفها الأوروبيون ونُشر معظمها في بريطانيا وألمانيا. وهذه دلالة على تحكم الأوروبيين في الثقافة السواحلية.

وضع السواحلية المكتوبة بالحرف العربي في الوقت الراهن

إن السواحلية المكتوبة بالحرف العربي ليست بعيدة العهد، إذ كانت تصدر بها صحف حتى أوئل الستينيات من القرن الماضي، أثناء استقلال دول شرق إفريقيا من بريطانيا. ولا تزال باقية في الجيل القديم الذي كان قد نال حظًا من التعليم الإسلامي، وفي من عنده شيء من اللغة العربية، من السواحليين لأنه يستطيع قراءة السواحلية بالحرف العربي ولو بجهد محدود. ومع أن الحرف العربي أبعد عن مجالات كثيرة، منها التعليم والإدارة والإعلام والنشر، فإن قلة

³⁷ 1970:94-95.

³⁸ 1991:40.

د. عبدالله عبدالقادر محمد إشكالية المخطوطات التراثية... بالحرف العربي: ... السواحلي

من العلماء تشبثت به وحافظت عليه. ولا تزال شريحة من العلماء تستخدمه للمراسلات. ولئن كان النشر بالسواحلية المكتوبة بالحرف العربي نادراً الآن، فإن بعض المؤلفين يقدمون بالسواحلية المكتوبة بالحرف العربي لكتيبات صغيرة للأدعية والأذكار قليلة الانتشار.

ثمة ظاهرة أخرى يلاحظها المرء هي أن بعض الإعلاميين السواحليين العاملين في الإذاعات المسموعة والمرئية الناطقة بالسواحلية يخرجون بعض الأصوات من بعض المخارج السواحلية الأصلية التي ضاعت من السواحلية بعد كتابتها بالحرف اللاتيني. لكن السواحلية المكتوبة بالحرف العربي، للأسف، لم تستفد شيئاً من خروج الاستعمار بأشكاله الثلاثة، الألمانية والبرتغالية والبريطانية.

لقد سمع المؤلف أن هناك اقتراحاً بأن تكون بعض المسابقات في الشعر والنثر السواحليين مكتوبة بالحرف العربي في الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعقد سنوياً في مدينة لامو، ويحضره كثير من المشائخ وقادة الطرق الصوفية من بلاد شرق إفريقيا. فمن فعاليات المناسبة السنوية غالباً ما تكون مسابقات شعرية ونثرية، شفوية أو مكتوبة بالحرف اللاتيني. فإذا نجح منظمو تلك الاحتفالات في اقتراحهم هذا، فإن السواحلية المكتوبة بالحرف العربي ستُبعث من جديد.

التوصيات لإحياء اللغة السواحلية المكتوبة بالحرف

العربي والنتائج المتوقعة

التوصيات

إن الحرف العربي لم يمت تماماً وإن فترة ضعفه وهجره ليست بعيدة في التاريخ. فبعض الذين عاصروا هذا الحرف العربي لا يزالون أحياء. وإن المخطوطات الكثيرة الموجودة في أيدي العلماء السواحليين لا تزال تقرأ. ثم إن

حياة اللغة العربية نفسها عند كثير من هؤلاء العلماء عامل مهم في مساهمة عدم موت السواحلية المكتوبة بالحرف العربي كلية. فهذه الأمور أنفة الذكر عوامل إيجابية ومساعدة في الوقت نفسه في إحياء الحرف العربي للغة السواحلية. وفي سبيل الإحياء يقترح البحث الآتي :

أولاً: جمع التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي من أنحاء العالم وتصوير ما يمكن تصويره منه، وحفظ ذلك التراث، وترميم ما يحتاج إلى ترميم منه، وتصنيفه، ومحاولة تحديد تاريخ إنتاجه. يمكن إسناد مهمة جمع ذلك التراث في مركز في نيروبي مثلاً تابع لإيسيسكو (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة)، يشرف عليه، ويوفر له الدعم المادي والمعنوي والتدريب والأجهزة.

ثانياً: الاستفادة من الطلبة الناطقين بالسواحلية، الذين يدرسون العلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعات بريطانيا وألمانيا، بتكليفهم بأن يعودوا لبلادهم بمعلومات عن التراث السواحلي المكتوب بالحرف العربي في البلاد التي يدرسون فيها.

ثالثاً: حث دول شرق إفريقيا على محاولة استعادة ذلك التراث الذي يمثل ذخيرة وطنية وثروة قومية إلى متاحفها وأرشيفاتها، أو على حصول نسخ مصورة منه، والاستعانة باليونسكو في ذلك ما أمكن.

رابعاً: دراسة أنماط الكتابة القديمة وقواعدها لمعرفة ما إذا كانت أي اختلافات كتابية فيها هي اختلافات تنوع أم لهجية أم عشوائية.

خامساً: تبني الكتابة السواحلية الجديدة في المؤسسات الإسلامية كالمدارس والمساجد والجمعيات الإسلامية ومراسلات العلماء، وكذلك لدى المجموعات التي تستطيع الكتابة بالعربية وفي الثقافة الشعبية والفولكلور.

سادساً: إحياء المفردات السواحلية القديمة لأن علاقتها بالعربية كانت أقوى، وحصص التراث السواحلي واستخراج قاموس منه، لأن الإنجليزية الآن

د. عبدالله عبدالقادر محمد إشكالية المخطوطات التراثية... بالحرف العربي: ... السواحلي

تطغى على مجالات كانت حكراً للعربية كمصطلحات التجارة في السواحلية.

سابعاً: التعاون مع الجامعات والكليات الإسلامية الموجودة في شرق إفريقيا في التدريب على تقنيات الحرف العربي المطور (المنمط) لكتابة اللغات الإسلامية. وكذلك التعاون مع أقسام اللغويات والدراسات الإسلامية في الجامعات الرسمية في المنطقة.

ثامناً: وجوب فتح الجامعات العربية والإسلامية أقساماً في كلياتها الأدبية لدراسة آداب الشعوب المسلمة غير العربية وثقافتها، وجعل دراسة المناسب من اللغات الإفريقية المسلمة المكتوبة بالحرف العربي من متطلبات التخرج لبعض التخصصات كاللغة العربية والتاريخ واللغات والأنثروبولوجيا.

تاسعاً: تقوية اللغة العربية ودعمها في منطقة شرق إفريقيا دعماً مطلقاً لأن الذي يكتب بالحرف العربي ويتحدث بها يسهل عليه بعد جهد قليل أن يدرس السواحلية المكتوبة بالحرف العربي ويفهمها.

نتيجتان رئيستان متوقعتان

إذا تمت التوصيات السابقة فإن المرء يتوقع النتيجتين الرئيسيتين الآتيتين بإذن الله:

أولاً: مولد وضع جديد يكون فيه الحرف العربي واقعاً ومستخدماً بين شرائح كثيرة. وهذا سيلفت أنظار الأكاديميين الذين يرون إن إحياء هذا الحرف مستحيل أو صعب المنال. وستلقت كذلك أنظار الإعلاميين والكتاب. وبهذا يمكن بدء الإبداع بالسواحلية المكتوبة بالحرف العربي. وبهذا سينتشر هذا الحرف بين الناس.

ثانياً: مساعدة المسلمين وغير المسلمين على تعلم هذه اللغة، فيسهل تعلمها

على من لا يعرف الكتابة بالحرف العربي. وبهذا يمكن خلق تواصل بين المسلمين بخاصة.

المراجع

- Allen, J., 1971, *Tendi: six examples of Swahili classical verses with translations and notes*, Nairobi, London, Ibadan: Heineman.
- Amidu, A., 1995, "Kiswahili: People, Language, Literature and Lingua francas", *Nordic Journal of African Studies* 4(1): 104-123.
- Constantin, C., 1988, "The Charisma and the Crises of Power in East Africa", in O'Brien, C. & Coulon (eds.), *Charisma and Brotherhood in African Islam*:69-80. Oxford: Clarendon Press.
- Freeman-Greenville, 1962, *The East African Coast. Selected Documents from the First to the Earlier Nineteenth Century*. Oxford: Clarendon Press.
- Heine, B., 1970, *Status and Use of African Lingua Francas*. München: Weltforum Verlag.
- Horton, M., 1996, *Shanga. The Archaeology of a Muslim Trading Centre on the Coast of East Africa*. London: The British Institute of East Africa.
- Jahn, J., 1966, *A History of Neo-African Literature: Writing in two Continents*. London: Faber and Faber.
- Mathew, G., 1963, "The East African Coast until the Coming of the Portuguese", in Oliver, R. & G. Mathew (eds.), *History of East Africa* 1. Oxford: Clarendon Press.
- Mazrui, A., 1971, "Islam and the English Language in East and West Africa", in Whitely, W.H. (ed.), *Language Use and Social Change Problems of Multilingualism with Reference to East Africa*. Oxford: University Press.
- Onyango, J.O., 2005, "Issues in National Language Terminology Development in Kenya", *Swahili Forum* 12:219-234
- Shariff, I., 1991. "Islam and Secularity in Swahili Literature: An Overview", in Harrow, W. (ed.), *Faces of Islam in African literature*. Portsmouth: Heinemann.
- Trimingham, S., 1964, *Islam in East Africa*. Oxford: University Press.
- Williamson, J., 1947, "The Use of the Arabic Script in Swahili", *Supplement to African Studies* Vol. VI , No. 4:1-7.

د. عبدالله عبدالقادر محمد إشكالية المخطوطات التراثية... بالحرف العربي: ... السواحلي

Zhkuy, A., 2004, "Old Swahili Script and the Development of Swahili Literary Language", *Sudanic affairs*,15: 1-15.

